النجوم ... والجمرة الخامدة

قصة بقلم محيي الدين اسماعيل

اضواء المدينة تلتهب ثم تنطفىء في عينيه الطافحتين بالالم والرعب ... امواج سوداء من الناس تحمل على ظهورها اثقالا لم يرها بعد،منكبة على وجوهها ، تتحدث بلغة سقيمة ملتوية ، تهيم في الشوارع التي،لمهم الاعاجيب ... ضوضاء مختنقة غير مفهومة تتلاشى وتنبعث من جديد ، لتغلفه بجدار من الصمت مع نفسه . كل شيء هنا محكوم بضوضاء خانقة وبلغة رديئة جدا ... تيه من الضوضاء يحاصر روحه كضوضاء البعوض . الجميع يسيرون بصخب ، وبتكرار ممـــل مضحك . وخيـل اليه ان هناك ريحا صاعقة عاتية تجرفهم وهم يضحكون .

ونوقف قليلا ... هذه الضوضاء التي يزخر بها الشارع الاسود تيه ذاهل ... فهقهة الهاربين في عرض البحر ، وشراعهم الممزق تعوي فيه الريح . جميع تلك المقاهي تومىء له ايماءة الاغراء الدنس . ثم مضى يستعرض اضواء الشارع .. انها جميعا ومضات ساخرة من ظلام الفزع والتشرد .

وخيل اليه ان هناك شيئا اقوى من كل شيء ... غده ، هـذا السيء الاسود الغامض الذي يكبر ويتنامى في اعماقه كوحش .

كيف يقضي هذه الليلة الاخرى متشردا يهيم على وجهه هنا امام كل هذه الاشياء التي لا يمكن ان تتقهقر ؟

لماذا يبكي ؟ ... حقا لقد استحال الى ضفدعة مشلولة، يتسكع في هذه العوالم الليلية ، حتى ينفض كل شيء ولم يعد امامه ســوى شيء من الجوع ، وذكريات عن اولئك الهاربين في عرض البحر تحت شراعهم الممزق ، وطنين ذلك الصوت الليلي المألوف ... الحارس يمزق جدار الليل بصفيره وغنائه ! ومع ذلك ، لماذا يبكي ؟ سيدخل هذا العالم غدا ، وسينكمش صغيرا صغيرا ذلك الشيء الاسود في أعماقه . هـا هو قد بدأ ينزلق على السطح كجزيرة صغيرة من الطحلب على سطح الماء . ولكنه لن يكون طحلبا على السطح ... سيكون كل شيء الا ان يكون طحلبا على السطح . سينزلق مع الجميع ، ولكن من غير ان يكون طحلبا . لم يعد يهوله شيء ، ولن يقفل راجعا ، فهذا العالم الــذي خيل اليه انه مرصود محصن ، فيه ابواب ضخمة تسع الجميع ... مفتوحة ... مفتوحة جدا .

والمط انفاسه ، وهو يهتف من اعماقه ... سيكون قويا ،سعيدا، مرحا ، يسير بخطوات سريعة مكررة كهؤلاء . سيقف امام واجهات النور، بدلا من مواجهة النجوم ... النجوم سخيفة وبعيدة جدا . وتذكـــر جاره الحطاب ، ذلك الشيخ السخيف الهرم الذي كان يغني اغنيته في المساء ... لقد كان فيها ذكر للنجوم ... انها سخيفة بعيدة عـن روحه جدا .

وانهله كل شيء فاستروح قليلا واسترد انفاسه ، ثم تشبث بعزمه..

لا بد ان ينبش بطن هذا العالم العجيب ! لقد صمم على عمل شيء ما ، سيبوح لاعماق هذا العالم بكل ما في اعماقه ... سينزع الشمع الاحمر عن ختم العالم ، وسيفصح للعالم عن نصيبه من العالم !

وسمع شيئا يشبه اللحن ، فتذكر صوتا اخر يخترق هدوء الصبح، ثم تخبط في الذكريات واحس مرة اخرى بانه ضفدعة مشلولة تتسكع ... ثم توقف قليلا في الشارع وبدأ يتأمل ، فافشعر من خساستـــه ونذالته وضعفه ... الى هذا الحد ؟ وعاد الى نفسه مستغفرا .وجرفه الاعصار الى الداخل ، فاحس ان هناك يدا تضغط على قلبه وعلى رقبته ... هذا الخيط الحريري الاملس الذي يطوق عنق المجرم لحظة الاعدام. ووقف يتأمل بشرا عديدين في مختلف الالوان يخرجون من جوف الباب هناك على الرصيف الاخر ... هكذا يصنع الاله بالناس غدا ... يعصر الارض عصرا فتتساقط من جوفها قطرات لا نهاية لها من البشر على ارض الحساب ! هذه القطرات التي اغتصبت الحياة من الارض ، ما اسهل ان تذهب الى الجحيم ، ويظل هو يبصق عليها من الرصيف الاخر!

واحس بدوار في رأسه ، وبشيء يشبه الالم في بطنه ، فاستسلم مرتجفا . واستشعر رغبة في الجاوس ، ولكن لاح له ان جميع تلـك القطرات الزاحفة من جوف الباب تنظر اليه ، فاعتدل خائفا ، وتلفت.. هذا هو كل ما يملك ... طفلي يتزحلق على السطح .

ووقعت عيناه على شاربين غليظين ، وانف كحصوة حمراء،واسنان كانها منشار علاه الصدأ ... ثم يحس بساق ضخمة تصطدم بجنبيه .

ـ لا يا اغبر ... هنا ينامون ؟

ـ نعبان ... راسي يوجعني .

ـ الساعة واحدة وربع .. تاكسي .. اشكرك .. اتركه سكران..

مجنون ... عجايب ... شيء جارح كالسكين ... الفاظ فارغة تقرع اذنيه ، فيفزع ويكاد يصرخ ، ولكنه كان عاجزا ، كان متعبا متعبا جدا ، ويهدل جسمه على فارعة هذا السيل الجارف العجيب . انه لم يعد ضفدعة مشلولة تتسكع ... لقد عاد سمكة جافة ملقاة على هـذا الشاطىء ... انه مهمل تماما واغبر ايضا ... اغبر تماما ، ولعلـه مجنون . وحاول ان يضحك من نفسه .. من هذه السمكة الجافة التي لا تغمض عينيها عن هذا السيل ، ولكنه لم يستطع . حتى الضحك مات في قلبه منذ زمان . ومع ذلك ، فكل شيء سينقضي ... سينقضـي ويصير سوالف الايام !

وتحامل على نفسه ليهرب ، ولكن جسمه كان جافا . انه يحتـاج الى ماء كثير يتدفق على جسده الجاف لكي يستطيع ان يتحرك.وغالب جفاف جسمه ، حتى القى به على اعشاب ندية خضراء .

اه ! ... ورفع رأسه ليرى النجوم البعيدة من فوق . انه يريد

مكتبة المثنى

تقـدم

(نقائض جرير والفرزدق)

شرح ابي عبيدة وتحقيق المستشرق اثلي بيفان فـي ثلاثـة مجلدات بالقماش .

يطلب الكتاب من مكتبة المثنى ببغداد

ومن دار صادر ببيروت

ومن جميع المكتبات فـي العالم العربي

أن يرى النجوم ويقتني لها ، منذ زمان لم ير النجوم ، وهو على هذه الحال . ورأى ومضات بعيدة من فوق . وتذكر اولئك الهاربين في ظل الشراع الممزق القديم . انهم ، على الاقل ، ينظرون ويتنفسون ويغنون. واحس بخجل شديد من هذا المصير . فكيف لو يراه احد وهو على هذه الحال . وخيل اليه ان ينبوعا من الدم الساخن يتفجر في رأسه ، وتبتعد النجوم ، وتسحب الاضواء في عينيه ، وتختلط تلك الفطرات الزاحفة على قارعة الطريق من وراء السياج الذي يتكىء عليه .

وتمنى ان تكون نهاية لذلك كله ! ... تمنى ان يقف احدهم على رأسه الان وهو منبطح على العشب ليسأله : لماذا انت هنا ؟ لماذا جسمك متصلب الى هذا الحد ؟ هل تحس بشيء من الاختناق ؟ ... ها ! ... حقا ان الهواء هنا كثيف ! ... انت حقا رجل مجهول ! متصلب كالسمكة الجافة على الشاطىء ... انت ميت منذ زمان ! لماذا ترفع رأسك هكذا؟ هل تريد ان ترى النجوم ؟ ... هناك غيوم . كل ذلك وهم من الاوهام! احشاؤك تتمزق ، ذلك كل ما في الامر !

واستشعر حقا ان ساعديه قد تصلبا ، ودبت في عروقه حركة مبهمة فنهض واتكأ على السياج البارد ... كانت الصور الشاحبة قد اختلطت في مخيلته . صداع شديد في رأسه . وهناك على قارعة الطريق شيء يرتفع كعمود ازرق الى حواشي ظلمة الليل ، ويندثر في ظلاله ! عمود ازرق يتلوى ويندثر ... دخان سيكارة ملقاة هناك . ونشبت في نفسه رغبة ملحة في النهام هذا العمود الازرق . وخطا خطوات سريعة مترنحة ، وترك السياج وراءه . ترك الظلمة التي تعلن انه لا شيء .

وانطلقت في رأسه خيالات ، ترتسم انفعالا على وجهه ... اطار من الفزع ...

احذر ! ... انت لا تعرف حتى المشي ! هل تعرف المشي مثل هؤلاء الغرباء ؟ لا ! انت الغريب يتركونك على الرصيف ويمرون مسرعين وهم يتحدثون بلغتهم الركيكة السلسلة . انهم لم يتعلموا بعد كيف يبصقون على جيفة مثلك ! سيتركونك هنا ويمرون ... سيتركونك مع صمتك ووفارك وظلمك التي تنمو سريعا كالسرطان !

خزي ! تف !

وكانت اعقاب السكاير مبعثرة في الشارع على الرصيف ، والكثير منها قد انطفأ . ومع ذلك فما زالت هناك اعمدة زرقاء ترتفع من كل صوب ، وتتأرجح باغراء شديد . المهم ان يكون هؤلاء جميعهم هم الغرباء، والا يكون هو الغريب الابله ، يسلم على هؤلاء دون أن يردوا عليه ، لانهم لا يعرفونه من قبل !

لقد نسي النجوم .. نسي كل شيء ! الا هذه الاعمدة الزرقاء ، تلهث وتختفي ، ثم تلهث لتختفي .

المهم الان ، ان يعثر على عقب سيكارة لم تنطفىء جمرته ، تكون قبسا للجميع .

واخيرا ، عثر على بغيته ! لقد كان عقب سيكارة ينفث اعمدة عذراء ، تومض جمرته باجمل مما تومض كل تلك النجوم السحيقة ... ومضى يحوم حول العقب ، محاولا أن يمشي كما يمشي الغرباء الاخرون، ويبتسم . وبعد لأي ، وبدافع من اليأس ، دنا من العقب وحاذاه ، ولكنه لم ينحن ليتناوله ، لان تيارا من الشعور بالخجل والانسحاق عاقه عن ذلك . فصلب عوده ، وشد اعصابه ، واخذ يتنفس بصعوبة وعناء ...

هذا العمود من الدخان الازرق العطر ما يزال يندفع بصلف وكبرياء امام عينيه .

كان الوقت يمر ، واضواء المدينة تزخرف الظلمة وتحجب عنه كل شيء الا ذلك العمود الازرق . فاحس احساسا محرقا مفريا ، بان مأدبة العالم هنا على هذا الرصيف .

واغمض عينيه عن كل شيء ، واتجه بكل فواه الى مستقر حلمه . وانحنى ليلتقط العقب ، غير عابىء بالظلمة المزخرفة وبالنجوم !

لقد التقطه ، ولكن كان العقب خامدا .

بيروت — محيي الدين اسماعيل

صدر حديثا عن دار الاداب :

المعقول واللامعقول في الأدب الحديث

تأليف كولن ولسون

ترجمة انيس زكي حسن

دراسات هامة رائعة عن تيارات الفكر الحديث في الادب والفن ، بقلم كاتب من اشهر كتاب العصر

الثمن ٤٥٠ ق. ل